حوار مع الباحث والأكاديمي التونسي محمد المستيري

حاوره د. عبد الحليم مهورباشة، عضو هيئة التحرير وأستاذ علم الاجتماع

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

س: كيف يقدم مُحَمَّد المستيري نفسه لقراء المجلة، وما هي أهم القضايا المعرفية والمنهجية التي يشتغل عليها المستيري كأستاذ وأكاديمي تونسي وباحث عربي ؟

أشير في البدايةإلى أنني خريج جامعة الزيتونة التونسية، تلك المؤسسة العلمية العريقة والمعروفة في المغرب العربي، حاصل على شهادة دكتوراه في الفلسفة وعلم الكلام، عملت في العديد من المراكز البحثية في تونس وخارجها، رئيس تحرير سابقلمجلة رؤى التي كانتتصدر في باريس، مستشار سابق للمعهد العالمي للفكر الإسلامي.مُحَمَّد المستيريالإنسان عانى طوال حياته من الاغتراب المكاني؛ حيث أمضيت عمري كله منتقلا ومترحلا من جامعة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر.

- أما أهم القضايا التي اشتغل عليها كباحث عربي وتونسي فتتمثل في التأصيل المعرفي، الذيأقصد به إبداع منهج جديد، يتم من خلاله تجاوز المنهج التراثي، الذي تكلّست أدواتهالإجرائية، والقضية الأخرى التي اشتغل عليها منذ عديد السنوات تتمثل في كيفية تحديث الفكر الإسلامي،بمعنى آخر جعله معاصرا لواقعه، ومقاربته من زاوية حداثوية، حتى يتمكن هذا الفكر من الانفتاح على مستجدات العصر، ويستفيد منها في إعادة بناء قضاياه ومفهوماته، ويتوصل إلى فهم معرفي للواقع وتضاريسه المختلفة.

س: ما قراءتكم للخريطة الفكرية في العالم العربيوالإسلامي، من حيث الموضوعات التي تشتغل حولها،ومن حيث المناهج والآليات التي تقارب بهاإشكالياتها؟ومن حيث الغايات

التي تروم بلوغها؟ وما هي حدود الوصل والفصل بين المشاريع الفكرية المعاصرة والواقع؟

إنّ أول ملاحظة نبديها اتجاه الفكر العربي عموما تتمثل في كون هذا الفكر محكوم بجملة ثنائيات من قبيل (الأناوالأخر)، (الإسلام والغرب)، (النظام الإسلامي، النظام العلماني)... أدت هذه الثنائيات إلى عطالة على مستوى الأفكار والمشروعات التي يولدها الفكر العربي، لذا نرى من الضروري أن يتجاوز هذا الفكر هذه الثنائيات التصادمية، وينفتح على الأفق الإنساني الرحب.

- وأول تلك الثنائيات ثنائية الأنا–والآخر التي تضعنا دائما في علاقة صدامية على مختلف الأصعدة والمستويات الفكرية.إننا نرى أن الأنا مدمج بالضرورة في الآخر، والعكس الصحيح، فلم لا يتم الوصل بين الأناوالآخر على مستوى المعارف والثقافات، دونما ذوبان كلي في الآخر ودون تخلي الأنا عن خصوصيتها الحضارية والثقافية.

- وإذا انتقلنا إلى الفكر الإسلامي (الديني) نجد ثنائية أخرى تتمثل في ثنائية العقل والنقل، فإن العقل الإسلامي مطالببأن يتحرر منها بانفتاحه على الفكر الإنساني المعاصر، ليستوعب معطيات الواقع ويبصر فيها أفقه المستقبلي، وهذا لا يعني بأي حال، أن نندمج ضمن الآخر ونذوب فيه، فالتقليد لا يقتصر على الفكر الإسلامي والمشتغلين به، بل هو أيضا ممارسة نجدها عند من يوصفون بالحداثيين في العالم العربي، وهنا، يتطابق التقليد بين مقلدة التراث ومقلدة الحداثة، ليفضي ذلك كله إلى تكلس العقل العربي والإسلامي المعاصر.

س: أستاذ مُحَمّد المستيري، في تصوركم كباحث مهتم بشؤون الفكر الإسلامي، هل يعاني الفكر الإسلامي المعاصر–برأيكم– من أزمة منهجية أم أزمة تنظيرية أم أزمة تنزيل لمشروعاته على أرض الواقع. انطلاقا من خبرتكم في مجال البحث في الفكر الإسلامي، ما هي القضايا الفكرية والمنهجية التي يجب على الفكر الإسلامي أن يشتغل حولها

راهنا؟وما هي الخطوات المنهجية التي يمكن من خلالها إعادة بناء العقل الإسلامي من جديد؟

- أولا: نحن لا نتفق معكم في توصيفكم بأن الفكر الإسلامي يعاني من أزمة، فكما تعلمون يصطبغ مفهوم الأزمة في العادة بدلالات سلبية، ويشير إلى حالة الانسداد التاريخي المزمن والعجز عن إبداع الحلول لتجاوز الأزمة، ليصل البعض بإقرار استفحال الأزمة وتعقدها، وبالتالي لا مجال لتجاوزها في الأفق القريب أو العيد، لذا نحن نرى أنّ الفكر الإسلامي يعاني من وضعية نصفها بالوضعية الاستشكالية، تتطلب هذه الوضعية حلا من طبيعة منهجية، ولا سبيل إلى تفكيك هذه الإشكالية أو الإشكاليات التي يحياها الفكر الإسلامي إلا من خلال إبداع مناهج معاصرة.

- ثانيا: نحن كمشتغلين في حقل الفكر الإسلامي لعقدين ونيف، نسعى إلى جعل الفكر الإسلامي معاصرا، وبمعنى آخر، ليصبح هذا الفكر متصلا بقضايا الواقع الراهن، وليس معناه تحديثه على الطريقة الغربية، وإنماأن نجعله فكرا يعاصر واقعه الإنساني الجديد. ولا مانع لدينا من أن ينفتح الفكر الإسلامي على منجزات الفكر الغربي، وهذا في اتجاه التأسيس لبراديغمأ ونموذج معرفي معاصر، يهتم بقضايا وأسئلة الإنسان المعاصر، ويمكننا من طرح البديل المعرفي في مختلف المجالات(العلمية، السياسية، والاقتصادية...).

- ثالثا: أرى كباحث ضرورة أن نفكر من منطلق كوني ثم ندمج فيه الخصوصي، بمعنى إنني أرى إذا انطلقنا من الخصوصي فإننا لن نرتقي إلى الكوني، فأي تحديد لهوية الفكرأيا كانت (قومية، عربية، إسلامية..) هي عبارة عن تقييد لهذا الفكر بالمعطى الخصوصي الذي يمنعه الارتقاء إلى الكوني، ونحن في زمن أصبح فيه التفكير كونيا وليس خصوصيا، لذلك فالفكر الإسلامي مطالب بتوليد فكر منهجي كوني، يحمل صفات المعاصرة من جهة، ومن جهة أخرى يجيب هذا الفكر على إشكالات الإنسان، بما هو إنسانأيّا كان لونه وعرقه وتراثه ودينه.

س: الباحث مُحَمَّد المستيري، من خلال قراءتكم لتجربة التأصيل للمعرفي في مختلف الحقول المعرفية(علم الاجتماع، النفس، التربية...) في العالم العربي والإسلامي، ماهي حدود هذه التجربة، وما هي برأيكم أهم التحديات التي واجهت أو تواجه مشروع التأصيل المعرفي، وما هي آفاقها المستقبلية؟

- كما ذكرت لكم في السابق، إنّإجابتي على هذا السؤال تقتضي منا أن نحدد في البدء فكرة في غاية الأهمية، تتمثل في وحدة المعرفة الإنسانية لا تجزيئها، فلا توجد معرفة دينية في المعرفة الإنسانية، فكل تحديد هووي للمعرفة هو سجن لها في الخصوصي الذي يمنعها من الارتقاء إلى مرتبة الكونية، وعليه فإن مدار اشتغالنا هو التأصيل المعرفي، لكن بمدلول مخالف لما شاع في العالم العربي والإسلامي من إلباس المعرفة لبوسا دينيا، فنحن في حاجة إلى تفكيك القداسة التي ألبست لعلوم الشريعة، فهناك فرق واضح بين الوحي الرباني وعلوم الوحي، فهذه الأخيرة هي اجتهاد بشري، ولا يجب أن نرفعها إلى مرتبة الوحي، ونرى أن تقديس التراث هو الذي أدى إلى تكلس العقل الإسلامي في جانب المفهومات والمناهج الفكرية، فظل العقل الإسلامي لعقود زمنية طويلة حبيس الممارسة التراثية الماضوية.

- أما نحن فإننا نقصد بالتأصيل المعرفي سؤال المنهج والمنهجية، فتاريخيا إذا رجعنا إلى سؤال التأصيل في النهضة العربية، فإننا نميل إلى القول بأن سؤال النهضة كان سؤال استنهاض، أي حشدا للهمم على المستوى العاطفي لنهضة الأمة، دونما طرق لسؤال المنهج بمفهومنا المعاصر، لذلك كانت الإجابات عن سؤال الاستنهاض الوجداني عبارة عن ردود فعل على إكراهات واقع ما، تتصدر تلك الإكراهات الظاهرة الاستعمارية وغزوها للأوطان، وكذلك ظاهرة التغريب القسري الذي مورس على الهوية الثقافية لهذه الأمة، لذلك لم يخرج الفكر الإسلامي في نشأته الحديثة مع زمن النهضة عن منطق التبرير والدفاع عن المقوماتالأصولية للدين، فظل هذا السؤال الأصولي لا التأصيلي يدور حول ثلاثة محاور كبرى:

1- سؤال العودة إلى أصول الدين، أو العودة إلى النبع الصافي.

2- سؤال الاستفادة من علوم الفرنجة (الغرب).

3- سؤال الموازنة الفكرية بين أصول الدين وعلوم الفرنجة.

- ومن هذا المنطلق، لم تكن أسئلة ولا إجابات سؤال الاستنهاض من طبيعة منهجية، فسؤال التأصيل نراه سؤالا منهجيا، من خلال السعي إلى وصل العقل الإسلاميبأصوله، ووصله بواقعه، وبإمكانية هذا العقل استشراف مستقبله ضمن خريطة الأمم المعاصرة، والتأصيل المعرفي إبداع مناهج معاصرة تضع نصب عينيها المستقبل، وتأخذنا من الأفق الكوني إلى الأفق الخصوصي، وتسهم هذه المناهج في انفتاح الفكر الإسلامي على الفكر الإنساني.

- فنحن بحاجة إلى منهجية تفكيرية لا إلى فكر نمطي جاهز نطلق عليه وصف الفكر الإسلامي، ويكون من منطلقات هذه المنهجية التفكيرية الانفتاح على المعرفة والفكر الإنساني شرقي أو غربي، من قبيل الاشتغال على موضوعات الحداثة وسؤال الأخلاق، وغيرها. ومن الضروري مغادرة الفكر الإسلامي لتلك المفارقات كالأيديولوجيا والعلمانية التي تجمد طرائق التفكير وترميه في مزالق التبرير والدفاع المستميت.

- أماإذا كنت تريد أن أدلي لك برأي صريح حول فكرة إسلامية المعرفة، فإننا نرى من جانب معرفي أن هذه الهوية الخصوصية تقضي على أصالتها، فأنا لا أؤمن بالهوية الدينية للمعرفة، وأناأرىأن سؤال إسلامية المعرفة لم يتجاوز أرض الأزمة، بل هو سؤال مأزوم في ذاته، لا يحمل معه أية منطلقات تجديدية ولا يفتح أيةإشكاليات جديدة أمام العقل الإسلامي، فتحول سؤال إسلامية المعرفة من سؤال تأصيلي إلى سؤال أصولي يتغلف بالخطاب الدعوي والعوض الديني.

س: انطلاقا من خبرتكم الأكاديمية في التدريس الجامعي، ما هي برأيكم أهم المناهج والطرائق التي تعتمدها الجامعات الدولية، والتي ترون أنه يمكن توظيفها واعتمادها لتحسين منظومات التعليم الجامعي في العالم العربي؟

- انطلاقا من خبرتي المهنية في مجال التدريس الجامعي، حيث أمضيت أكثر من عشرين سنة متنقلا بين عديد الجامعات الغربية في كل من فرنسا وبلجيكا وسويسرا، وكذلك تجربتي الحديثة في جامعة الزيتونة في تونس(ثلاثة سنوات)، بالإضافة إلى مشاركتي في العديد من المؤتمرات الدولية في الجامعات العربي، توصلت إلى جملة من الملاحظات حول مناهج التعليم الجامعي عندنا ومقارنتها بالمناهج الغربية، ألخصها في النقاط التالية:

1- لدنيا في مناهج التعليم الجامعي على مستوى العالم العربي خلط واضح بين التعليم بصفة عامة، والتعليم البحثي، فالتعليم البحثي نعني به كيفية إعداد الطالب منهجيا ومعرفيا لممارسة العمليات البحثية، وإنجاز البحوث والدراسات المختلفة، لذا نرى أنّ أغلب المناهج الجامعية لدينا تركز فقط على العملية التعليمية العامة.

2- تخلو معظم مناهج التعليم الجامعي في العالم العربي من مناهج البحث العلمي في أطوارها المختلفة، وتفتقد الجامعات العربيةكذلك إلى الشروط اللازمة لممارسة عملية البحث العلمي، كالافتقاد إلى المكتبات التي توفر الكتب المتخصصة، والمخابر البحثية ذات التجهيز النوعي، وغيرها، لذلك يظل إنتاجها المعرفي والبحثي متواضعا وبسيطا في غالبيته.

3- إنّ مالاحظناه في المناهج الجامعية في الجامعات الغربية هو ميلها إلى فكرة التكامل أو التداخل المعرفي بين التخصصات العلمية؛ حيث أصبحت التخصصات في هذه الجامعات أكثر انفتاحا على بعضها البعض بسبب الوظائف التي تؤديها العلوم، بينما نميل في المناهج- في عالمنا العربي-إلى تفتيت وتجزئة المعرفة إلى وحدات لا رابط معرفي بينها، مما يجعلها

تخصصات معرفية تحرم نفسها من الاطلاع على المناهج التي تطورت في التخصصات المختلفة.

4- إن التكامل المعرفي بين العلوم أصبح مطلبا منهجيا مهما؛ حيث ينبغي إعادة هيكلة الجامعات العربية وفق رؤية معاصرة للعلوم، وإعادة النظر في المقررات والمناهج الجامعية، وكذلك الانفتاح على مختلف التجارب الجامعية العالمية، فانظر مثلا كيف استفادت الجامعات الاندونيسية والماليزية من التجارب الغربية؛ حيث طورت مناهجها وهي اليوم تصنف في المراتب الأولى علميا.